استشهاد سعيد بن جبير ومعركة شماهي وإسلام وفد ثقيف

إعداد: رياض عواد

شهر رمضان المبارك هو شهر الفتوحات والأحداث الجسام في تاريخنا الإسلامي.. وهذه الحلقات نحاول خلالها إبراز أهم الأحداث التي وقعت في هذا الشهر الكريم تلك الأحداث كثيرة ومتنوعة، ما بين معارك إسلامية فاصلة وفتوحات وأحداث إسلامية مهمة تتعلق بمولد أو وفاة أعلام المسلمين، فنعيش خلال الحلقات القادمة مع بعض تلك الأحداث والفتوحات لنقتفي آثارها ونتلمس خطاها.

استشهاد سعيد بن جبير

استشهد العالم سعيد بن جبير في 11 رمضان 95هـ الموافق 714م على يد الحجاج بن يوسف الثقفي. ويكنى أبا عبدالله، مولى لبني وألبة بن الحارث من بني أسد بن خزيمة.

لمَّا انهزم أصحاب ابن الأشعث في معركة دير الجماجم، وكان سعيد بن جبير رحمه الله في جيش ابن الأشعث، هرب سعيد بن جبير رحمه الله إلى مكة، فأخذه خالد بن عبد الله القسري، وكان والي الوليد بن عبد الملك على مكة، فبعث به إلى الحجاج بن يوسف الثقفي

ويروي أبو الصهباء ما وقع بين سعيد والحجاج، حيث قال: قال الحجاج لسعيد بن جبير: «اختر أيَّ قِتْلَة شئت، فقال له: بل اخترْ أنت لَنفسِك. فإنَّ القصاص أمامك. قال له: يا شَقِيُّ بن كَسير، ألم أقدم الكوفة وليسَ يؤمُّ بهَا إلَّا عربي، فجعلتك إمامًا؟ قال: بلى. قال: ألم أولِّك القضاء، فضجَّ أهل الكوفة، وقالوا: لا يصلح القضاء إلَّا لعربي، فاستقضيت أبا بردة، وأمرته ألَّا يقطع أمرًا دونك؟ قال: بلى. قال: أوما جعلتك في سُمَّاري؟. قال: بلى. قال: أوما أعطيتك كذا وكذا من المال، تُفرِّقه في ذوي الحاجة، ثم لم أسألك عن شيء منه؟ قال: بلى. قال: فما أخرجَك عليَّ؟ قال: كانت بيعةٌ لابن الأشعث في عنقي. فغضب الحجَّاج، ثم قال: كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في عُنُقك قبل، والله لأقتلنَّك»

النسب والقبيلة

هو الإمام، الحافظ، المقرئ، المفسِّر سعيد بن جبير بن هشام، أبو محمد، ويُقال: أبو عبد الله، مولى لبني والبة بن الحارث من بني أسد ابن خزيمة، فعنه قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ممَّن أنت؟ قلت: من بني أسد. قال من عربهم أو من مواليهم؟ قلت: لا بل من مواليهم. قال: فقل أنا ممَّن أنعم الله عليه من بني أسد أي أنَّ سعيدًا بن جبير رحمه الله لم يكن عربيَّ الأصل.

رواية الحديث

كان سعيد بن جبير رحمه الله من المكثرين في رواية الحديث، وقد روى عن: ابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وأبي سعيد رضي الله عنهم، وطائفة أخرى.

وروى عنه: الأعمش، والحكم، وسَلَمَة بن كهيل، وسليمان الأحول، وخلقٌ كثير، فعن مجاهد قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما لسعيد بن جبير رحمه الله: حَدِّث. فقال: أُحَدِّث وأنت هاهنا؟ فقال: أوليس من نعمة الله عليك أن تتحدَّث وأنا شاهد؛ فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت عَلَّمْتُك".

وعن مؤذِّن بني وادعة قال: دخلتُ على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهو متَّكئٌ على مرفقة من حرير، وسعيد بن جبير عند رجليه وهو يقول له: انظر كيف تُحَدِّثُ عنِّي فإنَّك قد حفظت عني حديثًا كثيرًا

علم سعيد بن جبير

أخذ سعيد بن جبير رحمه الله العلمَ عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم، غير أنَّه كان ملازمًا لترجمان القرآن وحبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فتعلَّم منه القرآن والتفسير والحديث؛ فعن سعيد بن جبير قال: ربَّما أتيتُ ابن عباس رضي الله عنهما فكتبتُ في صحيفتي حتى أملأها، وكتبت في نعلي حتى أملأها، وكتبت في كفي، وعنه قال: كنت آتي ابن عباس رضي الله عنهما فأكتب عنه.

وكان ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما يشهدان له بنبوغه وضلوعه في العلم؛ فعن جعفر بن أبي المغيرة قال: كان ابن عباس رضي الله عنهما بعد ما عمي إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه قال: تسألوني وفيكم ابن أمِّ دهماء؟ قال يعقوب: يعني سعيد بن جبير

وعن سعيد بن جبير رحمه الله قال: "جاء رجلٌ إلَى ابن عمر رضي الله عنهما فسأله عن فريضة فقال: ائت سعيدَ بن جبير؛ فإنَّهُ أعلمُ بالحَساب منِّي، وهو يفرض منها ما أفرض"

وقال سعيد رحمه الله: قرأتُ القرآن في ركعة في البيت الحرام؛ وقال إسمَاعيل بن عبد الملك: كان سعيد بن جبير يَؤُمُّنا في شهر رمضان فيقرأ ليلةً بقراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وليلةً بقراءة زيد بن ثابت رضي الله عنه وليلةً بقراءة غيره، هكذا أبدًا

وقال خصيف: كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحجِّ عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كلِّه سعيد بن جبير

وقال ميمون بن مهران: لقد مات سعيد بن جبير رحمه الله، وما على ظهر الأرض أحدٌ إلَّا وهو محتاجٌ إلى علمه

العابد القوام

ممَّا عُرف عن سعيد بن جبير رحمه اللَه أنَّه كان عابدًا قوَّامًا؛ فعن أصبغ بن زيد قال: كان لسعيد بن جبير ديكٌ كان يقوم من الليل بصياحه، فلم يصح ليلةً من الليالي حتى أصبح، فلم يُصَلِّ سعيدٌ تلك الليلة، فشقَّ عليه فقال: ما له قطع الله صوته؟ فما سُمع له صوتٌ بعدها. فقالت أمُّهَ: يا بُني لا تدعُ على شيء بعدها وقال القاسم بن أبي أيوب: سمعتُ سعيد بن جبير، يُردِّد هذه الآية في الصلاة بضعًا وعشرين مرَّةً ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فيه إلَى اللَّه ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْس مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البَقرة:

ويقول هلال بن خباب: خرجتُ مع سعيد بن جبير في أيَّام مضين من رجب، وأحْرَمَ من الكوفة بعمرة ثم رجع من عمرته، ثم أحرمَ بالحج في النصف من ذي القعدة، وكان يخرج كلَّ سنة مرَّتين مرَّةً للعمرة ومرَّةً للحجِّ"

وعن هلال بن يساف قال: «دخل سعيدُ بن جبير الكعبةَ فقرأ القرآن في ركعة»

حب القرآن

كان لسعيد شأنٌ وحالٌ مع القرآن فرُوي: "أنَّه كان يختم القرآن في كلِّ ليلتين" وعن الصعب بن عثمان قال: قال سعيد بن جبير رحمه الله: ما مضت عليَّ ليلتان منذ قُتل الحسين إلَّا أقرأ فيها القرآن، إلَّا مريضًا أو مسافرًا وعن حمَّاد بن أبي سليمان قال: سمعت سعيد بن جبير يقول: قرأت القرآن في الكعبة في ليلة

إنَّ ممَّا أُثر عن سعيد بن جبير رحمه اللهَ خوفه وخشيته، وقد كان ذكْرُ الموت لا يُفارقه، فيقول: "لو فَارق ذَكر الموت قلبي خشيت أن يفسد عليَّ قلبي"، وعنه قال: "الدنيا جمعةٌ من جُمَع الآخرة"

أثره في الآخرين

ما كانت تأتي فرصةٌ للدعوة أو للنصح أمام سعيد بن جبير رحمه الله إلَّا اغتنمها، فكان يُراسل إخوانه، وفي ذلك يقول عمرو بن ذر: كتب سعيد بن جبير إلى أبي كتابًا أوصاه فيه بتقوى الله، وقال: "يا أبا عمر، إنَّ بقاء المسلم كلَّ يوم غنيمة". وذكر الفرائض والصَّلوات وما يرزقه الله من ذكره

وعن هلال بن خباب، قال: خرجنا مع سعيد بن جبير في جنازة، قال: فكان يُحدِّثنا في الطريق ويُذكِّرنا حتى بلغ، فلمَّا بلغ جلس فلم يزل يُحدِّثنا حتى قمنا فرجعنا، وكان كثير الذكر لله عز وجل، وكان يقول: إنَّ ممَّا يهمُّني ما عندي من العلم، وددتُ أنَّ الناس أخذوه. وكان لا يدع أحدًا يغتاب عنده

من أقواله

كان لسعيد بن جبير أقوالٌ تدلُّ على إيمانه بالله عزَّ وجلَّ وخشيته منه وتقواه، ومن هذه الأقوال ما ورد في بعض مصنَّفات المحدثين وكتب المؤرخين، ومنها:

– قال سعيد بن جبير رحمه الله: «التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ جِمَاعُ الإيمان»

– وقال رحمه الله: «الخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيته بينك وبين معصيته، فتلك الخشية، والذكر طاعة الله، ومن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطع الله فليس بذاكر وإنْ أكثر التسبيح وتلاوة الكتابَ».

– وقال رحمه الله لابنه: «أَظْهِر اليأس ممَّا في أيدي الناسَ فإنَّه غَنَاءٌ. وإيَّاك وما يُعْتَذَر منه فإنَّه لا يُعتذر من خير»

معركة شماهي

كانت الدولة العثمانية على خلاف مستمر مع الدولة الصفوية، بل وصل الأمر إلى صراع شديد بين البلدين؛ فالدولة العثمانية (ذات الطبيعة السُّنية) والدولة الصفوية (ذات الطبيعة الشيعية) على خلاف شديد، سواء كان عقديًا أو عسكريًا، ورغم القلة العددية للدولة الصفوية إلا أنها كانت تستعين بأعداء الدولة العثمانية في صراعها مع العثمانيين.

استغلت الدولة العثمانية حالة الصراع على السلطة بين أبناء طهماسب، الذي توفي سنة 984هـ، وخلفه ابنه حيدر، فقتل بعده بساعات ودفن مع أبيه، وتولى أخوه محمد خدابنده، فاختلف الناس عليه وعمت الاضطرابات بلاد فارس، فأرسل السلطان مراد الثالث جيشًا كبيرًا، فاحتل جورجيا ودخل عاصمتها تفليس عام 985هـ، ثم دخل فصل الشتاء فتوقف القتال. وفي الصيف عاد العثمانيون من أجل فتح شروان "أذربيجان"، فخرج لهم الصفويون بجيش كبير عند مدينة شماهي على حدود القوقاز، وفي يوم 11 رمضان سنة 986هـ، التقى الجيشان في معركة طاحنة، انتهت بنصر كبير للعثمانيين؛ حيث خسر الصفويون في هذه المعركة 15 ألف قتيل، وأسفرت المعركة عن ضم شروان "أذربيجان الشمالية" للدولة العثمانية[3].

إسلام وفد ثقيف

في الحادي عشر من شهر رمضان سنة تسع للهجرة قدم وفد ثقيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبايعونه على الإسلام. كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً كل الحرص على هداية الناس أجمعين، يسعى بكل ما أوتي لإيصال دين الإسلام إلى قلوب العالمين، حتى عبر القرآن عن هذا الحرص بأن النبي يكاد يهلك نفسه في سبيل أن يؤمن الناس وينجوا من عذاب الله، فقال تعالى (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) الشعراء: 3. إن دلت هذه الآية على شيء فإنما تدل على أن نظرة الرسول صلى الله عليه وسلم للناس جميعاً كانت نظرة شفقة وحب، لا نظرة عداء وكراهية، حتى موقفه من المعادين للإسلام والمجاهرين بالكفر والعداء كان الإشفاق والسعي لإدخال الهداية. ليت دعاة اليوم يتخذون النبي صلى الله عليه وسلم قدوة لهم في هذه الخصلة. لو كان موقف النبي من أعدائه كموقف بعض من يدعي الدفاع عن الإسلام، لما وصل الإسلام حيث يبلغ الليل والنهار. لما فتح الله على نبيه مكة المكرمة، علمت ثقيف أنه لا طاقة لهم بالوقوف في وجه دعوة الإسلام، فقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم ستة منهم بعد رجوعه من تبوك سنة تسع للهجرة.

كان الوفد مؤلفاً من ستة من كبار بني مالك والأحلاف، ثلاثة لكل منهما وعلى رأسهم جميعاً عبد ياليل بن عمرو.

جاء في كتاب السيرة النبوية للدكتور علي الصلابي ص851: «استقبل الرسول، صلى الله عليه وسلم، الوفد راضياً وبنى لهم خياماً لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا، وكانت ضيافتهم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكانوا يفدون عليه كل يوم، ويخلفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم، فكان عثمان كلما رجعوا وقالوا بالهاجرة (أي أخذوا القيلولة)، عمد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فسأله عن الدين واستقرأه القرآن، حتى فقه في الدين وعلم، وكان إذا وجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نائماً عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك من أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعجب منه وأحبه».

وهنا نقف عند هذه الشخصية التي برزت في قدوم وفد ثقيف، وهي شخصية الصحابي الجليل عثمان بن أبي العاص، الذي سعى لطلب العلم والأخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الصديق، حتى سكن حبُّه قلبَ النبي صلى الله عليه وسلم، الذي استعمله فيما بعد على الطائف.

لم تخب نظرة النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الرجل؛ فقد كان له الدور الأبرز في تثبيت قومه على الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو الذي قال لهم مقالته الشهيرة: «يا معشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلاماً فلا تكونوا أولهم ارتداداً».

فاوض وفد ثقيف الرسول عليه الصلاة والسلام على بعض أمور كانوا متعلقين بها في جاهليتهم، حتى يجيزها لهم في حال أسلموا، وهذا الموقف يبين لنا صلابة النبي صلى الله عليه وسلم، فلا مواربة في حدود الله وأحكامه وليست المداهنة من أخلاق الأنبياء فضلاً عن خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام. فقد جاء في كتب السير أن عبد ياليل قال: أرأيت الزنا؟ فإنا قوم عزاب بغرب، لا بد لنا منه، ولا يصبر أحدنا على العزبة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هو مما حرم الله على المسلمين، يقول الله تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)» الإسراء: 32.

قال: أرأيت الربا؟ قال: «الربا حرام» قال: فإن أموالنا كلها ربا، قال: «لكم رؤوس أموالكم، يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ)» البَقرَة: 278.

قال أفَرأيت الخمر؟ فإنها عصير أعنابنا، لا بد لنا منها.

قال: «فإن الله قد حرمها» ثم تلا رسول الله هذه الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) المائدة: 90.

ثم إنهم سألوا رسول الله أن يضع عنه الصلاة، فقال لهم: «لا خير في دين لا صلاة فيه». (المرجع السابق: 852).

لم يفلح وفد ثقيف في أخذ أي رخصة تحلل لهم ما حرم الله، وهذا يدل على عظم هذا الدين وأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن ربه سبحانه وتعالى، وليس له أن يشرع أي تشريع أو يضع أي حكم من تلقاء نفسه.

◆ بن جبير كان ملازمًا لترجمان القرآن وحبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

◆ شماهي كانت معركة طاحنة انتهت بنصر كبير للعثمانيين على الصفويين

◆ لم يفلح وفد ثقيف في أخذ أي رخصة تحلل لهم ما حرم الله